سلسلة الثقافة الإسلامية (٩٦)

الكلمة الطيبة

محمّد مهدي الآصفي

مختارات من محاضرات ومقالات
ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي
- ٩٦ -

* * *

اسم الكتاب: .... الكلمة الطيبة
المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي
الطبعة الاولى: .... ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م
الكمية .... ٥٠٠٠ نسخة
المطبعة:......... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّـهِ الْعِـزَّةُ جَمِيعـاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّـالِحُ يَرفَعُه﴾

فاطر: ١٠

الكلمة الطيبة

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرفَعُه﴾.

هذه الآية الكريمة ثلاث كلمات:

الكلمة الأولى: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾**

الكلمة الثانية: **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾**

الكلمة الثالثة: **﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾**

وسوف نتناول إن شاء الله هذه الكلمات الثلاثة بالشرح والتوضيح خلال هذا المقال.

الكلمة الأولى

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾

الـذين يريـدون أن يعيشـوا أعـزاء، فـإن العـزة الحقيقيـة والصادقة عند الله جميعاً، فليطلبوا العزة من الله، وما عدا ذلـك فهو من الغرور الكاذب..

وهذه حقيقة هامة من حقائق القرآن.

إن مصدر العزة الحقيقية هو الله.

وإن العزة كلها لله تعالى.

ما هي العزة؟

العزة هي مقاومة عوامل النفوذ والمؤمن العزيز هـو الـذين لا يستسـلم (للهـوى) و(الطـاغوت) والإغـراء والمـال والـدنيا والسلطان، و(الذليل) هو الذي يخضع لهذه العوامل ويتأثر بها وينقاد لها.

إن في حيـاة النـاس عوامـل ضـاغطة كثيـرة، منهـا عوامـل خارجية مثل المال والسلطان والجـنس الآخـر، ومنهـا عوامـل داخلية مثل الطمع، وحب الجاه، والمـال، والـدنيا، والخـوف،

والحرص، والحسد، وغريزة الجنس.

والطائفة الأولى هي (الفتن والمغريات) والطائفة الثانية هي (الأهواء والشهوات).

والناس تجاه هذه العوامل على طائفتين.

طائفة من الناس تستسلم لهذه العوامل، وتستقبل نفوذها، وطائفة أخرى تقاوم نفوذ هذه العوامل على اختلاف في درجات هذه الطائفة وتلك. والعزة هي مقاومة هذه العوامل.

وفي مقابل العزة (الذل)، وهو الاستسلام والانقياد لهذه العوامل.

فالطمع نحو من الذل، وحبّ الدنيا نحو من الذل، والانقياد والاستسلام لغريزة الجنس من غير حدود ولا ضوابط نحو من الذل، وبعكس ذلك الترفع عن المال والدنيا عزّة، والسيطرة على غريزة الجنس، ومقاومة سلطان ونفوذ الطاغوت عزّة.

العزة كلها من الله

والعزة كلها من عند الله، وليس للإنسان أن يقاوم هذه العوامل الضاغطة، إذا تخلى الله عن عبده، وأوكله إلى نفسه،

فإن الإنسان إذا وكله الله إلى نفسه كله ضعف وعجز، وليس له من حول ولا قوة إلاّ بحول الله وقوته.

فإذا تخيل الإنسان أن ما لديه من حول وقوة من عنده ملكه العجب والغرور، والعجب والغرور من اخطر محطات الضعف والذل في حياة الإنسان إن لم يكن المحطة الأولى والأكبر للذل في حياة الإنسان، والشيطان يتخذ الإنسان إذا ملكه العجب والغرور مرتعاً للشر والفساد، فيبعث في نفسه الخيلاء والكبرياء، وهما مصدر كثير من الشر والفساد في حياة الإنسان. ومن عجب أن الإنسان يخال في حالات العجب والغرور انه يقف على أرض صلبة، وهو يتحرك على أرض رخوة هشة، وليس في حياة الإنسان أرض يتحرك عليها أصلب وأقوى من التوكل على الله والثقة بالله والإحساس بالفقر والفاقة إلى الله.

ولذلك يقرر القرآن ﴿**فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**﴾. والإنسان من دون أن يأخذ العزة من الله، ضعيف، ذليل، وآخر ما يتخيل إليه من القوة، وهو حالة العجب والغرور، أقصى ما يصل إليه من الضعف والذل. ولا يتمكّن الشيطان من أحد، كما يتمكّن من الذين يملكهم العجب والغرور.

الكلمة الثانية

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾

وإذا كانت العزة الحقيقية من عند الله، فهي صاعدة لا محالة إلى الله، فما يكون من الله ينتهي ويصعد إلى الله. وهي قاعدة وسُنّة إلهية عامة.

والقرآن يقرر هذه الحقيقية في هذه الكلمة الدقيقة والعميقة ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾.

ما هي الكلمة

من الآية العاشرة من سورة فاطر نعرف أن الإنسان (كلمة) و(عمل) ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرفَعُه**﴾. ومعنى العمل واضح لا نتوقف عنده، وبالتقابل بين (الكلمة والعمل) نستطيع أن نفهم ـ والله أعلم بمراده ـ معنى الكلمة، فإن التقابل بينهما يقتضي أن يكون المقصود من الكلمة هو مصدر العمل (أي ما يصدر عنه العمل). وليس هناك احتمال ثالث لنأخذ به.

ومصدر العمل هو النية التي ينبعث عنها العمل، والنية

شاكلة العمل، أي على شكل العمل ومن سنخه، وكل يعمل كما تكون عليه نيته ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ**﴾[1]، والنية صادرة من الخصال الموجودة في النفس، كالإيمان والإخلاص، والتقوى، ومخافة الله، والشوق إلى الله، وحب الله، والعفاف، والجود، والإيثار، والمحبة. وهذه الخصال شاكلة النية. وهي قائمة في نفس الإنسان، ونفس الإنسان شاكلة ثالثة للعمل فإن الخصال الموجودة في النفس تنبع من النفس، ومن سنخ نفس الإنسان.

فالإنسان إذن (عمل) و(شاكلة العمل)، والنفس والنية هما المصدر الذي ينبعث عنه العمل، ولابد أن يكون هذا المصدر من سنخ العمل، وشكل العمل لا محالة.

وشاكلة العمل هي (الكلمة) في مقابل (العمل) كما أتصور، فليس احتمال ثالث، كما ذكرنا، ليفسر به (الكلمة)، والله أعلم.

ولابد أن نبادر هنا فنقول: ليس معنى تفسير الكلمة بشاكلة

---

١ ـ الإسراء: ٨٤.

العمل: إن العمل الصادر من السجايا والخصال الموجودة في النفس صادر من غير اختيار، كما يصدر الفعل الفيزياوي من المصدر الفيزياوي بصورة حتمية، ومن غير اختيار وإرادة.

وليست العلاقة بين (العمل) و(شاكلة العمل) العلاقة بين الآلة وعمل الآلة، بل علاقة شاكلة العمل بالعمل لا يتجاوز الاقتضاء، مثل علاقة الجوع بالأكل والعطش بالشرب والتعب بالخلود إلى الراحة.

وبين العمل وشاكلة العمل تفاعل وعلاقة تبادلية، يؤثر كل منهما في الآخر. فالنفس والخصال الموجودة في النفس تؤثر في نوع العمل، فيكون العمل الصادر من الإنسان الشجاع عملاً شجاعاً، والعمل الصادر من الجبان جُبناً وضعفاً، والعمل الصادر من الإنسان الكريم عطاء وكرماً، والعمل الصادر من الإنسان البخيل الشحيح شحاً وبخلاً، والعكس أيضاً صحيح، فإن العطاء والكرم ينمي خصلة الكرم في نفس الكريم، وممارسة الشح، والبخل تنمي وترسخ حالة الشح والبخل في نفوس البخلاء، والشجاعة والإقدام تنمي خصلة الشجاعة في النفس، والتخوف تنمّي وترسّخ خصلة الجبن

في نفوس الجبناء وضعفاء النفوس.

وهكذا.. نجد أن بين (العمل وشاكلة العمل) علاقة تبادلية ولا يمنع ذلك من القول بأن (الكلمة) أصل العمل، و(العمل) فرع الكلمة.

فإن العلاقة بين الأصل والفرع ليس دائماً علاقة حتمية من نوع العلاقة بين الآلة وفعلها.. بل من نوع العلاقة بين الظاهرة الاختيارية وما يقتضيها وكثيراً ما تكون هذه العلاقة تبادلية.

والآن بعد هذا التوضيح لـ (الكلمة) نقول: إن الذي يصعد إلى الله في حياة الإنسان هو الكلمة، والذي يرفعها إلى الله هو العمل.

العزة كلمة طيبة صاعدة إلى الله

إن العزة بالله كلمة طيبة تصعد كلها إلى الله، والذل كلمة خبيثة تسقط كلها في نار جهنم.. وهذه الحقيقة هي التي يقررها الشطر الثاني من هذه الآية الكريمة ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾.

وكيف تصعد هذه الكلمة (العزة بالله) إلى الله؟ وكيف

تخلد الكلمة الخبيثة (الذل) إلى الأرض وتسقط في النار؟

هذا هو السؤال الذي نضعه هنا موضع البحث والشرح.

إن العزة هي الانعتاق من سلطان الهوى والطاغوت والمغريات والفتن ولذلك فهي كلمة صاعدة إلى الله، لأنها متحررة ومنعتقة من سلطان الهوى والطاغوت ومغريات الحياة الدنيا.

وصاحبها كذلك كلمة طيبة، لأنه منعتق ومتحرر من سلطان الهوى ومغريات الحياة الدنيا وسلطان الطاغوت، فهو كلمة صاعدة إلى الله، عندما يتحرر من عوائق العروج إلى الله.

والذل كلمة خبيثة لأنها أسيرة هذه العوائق، وتحت سلطانها، ومنقادة لها.

وهذه العوائق هي ـ في الحقيقة ـ القيود والآصار والأغلال التي جاء الأنبياء عليهم السلام ليحرروا الناس عنها ﴿**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾[1].

---

١ ـ الأعراف: ١٥٧.

والإصر: الثقل الذي يثقل ظهر الإنسان، ويبطئ حركته، والأغلال هي التي تكبل الإنسان وتمنعه من الحركة. وكلاهما يعيقان الإنسان من العروج إلى الله، ولكن بدرجات مختلفة.

فإذا أراد الإنسان أن يتحرك باتجاه التكامل، وهي في الثقافة الإسلامية: الحركة إلى الله، لابد أن يتحرر من الآصار والأغلال التي تقيد حركته.

وهذا التحرر والانعتاق هو الذي يريده الله تعالى للمؤمن من العز. كما أن قبول هذه الآصار والأغلال والركون إليها هو ما يرفضه الله تعالى للمؤمن من الذل.

الحياة الطيبة بالكلمة الطيبة

وهذه هي الحياة الطيبة التي يدعو إليها الله تعالى ورسوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[١]، وهي شيء آخر غير الحياة التي يعيشها

---

١ ـ الأنفال: ٢٤.

الناس في مساحة شهواتهم وأهوائهم، كما تعيش البهيمة.

الحياة الطيبة: هي انطلاقة الإنسان وحركته إلى الله أولاً، وهي حركة مستمرة بالأخذ والعطاء ثانياً. والانطلاق إلى الله لا يكون إلاّ عندما يتخفف الإنسان من القيود التي تثقله إلى الأرض، وبقدر ما يتخفف الإنسان ويتحرر من هذه القيود... يكون عروجه إلى الله فإن هذه القيود تشده إلى الأرض، وتعيقه من الصعود.. وما لم يقطع الإنسان هذه القيود ويتحرر عنها لا يستطيع أن ينفر إلى الله ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ**﴾[1].

وتعبير القرآن دقيق غاية الدقة، ومنطلق لكل التصور الإسلامي في منهج التربية والتهذيب، إن السكون إلى الحياة الدنيا هو الذي يعيق الإنسان عن النفر في سبيل الله، فإذا عرف الإنسان أن متاع الحياة الدنيا بالقياس إلى حياة الآخرة،

---

١ ـ التوبة: ٣٨.

قليل تافه، لا تصده الحياة الدنيا عندئذ عن النفر إلى الله.

وكلمة (اثَّاقَلْتُمْ) بمعناها وجرسها ذات دلالة عميقة على طبيعة علاقة الإنسان بهذه الدنيا. فهي الترهل في روح الإنسان ونفسه، وهذا الترهل يفقده خفة الحركة.

إن طبيعة العلاقة بالدنيا تؤدي إلى هذا التثاقل والتعويق عن الله، والقرآن يقرر مبدأ تربوياً هاماً بهذا الصدد، وهو أن هذا المتاع المحدود والزائل من متاع الدنيا لا يستحق أن يعيق الإنسان عن الله والحياة الآخرة.

ولكي يتمكن الإنسان أن ينتقل في هذه الدنيا إلى الحياة الطيبة. يجب أن يقاوم كل التعلقات المتمكنة من نفسه، ويجرد نفسه منها، وهو يعيش مع الناس في دنياهم ويشاركهم السراء والضراء... وهذا هو الموت بـ (الاختيار).

والموت موتان: موت اضطراري يقطع الإنسان عن الدنيا وما فيها مرة واحدة. ويغيبه عنها. وموت بـ (الاختيار)، يقطع الإنسان، باختياره، عن الدنيا، وهو في هذه الدنيا، يعيش ويتنعم بمتاع الدنيا. وهذا الذي أسميناه بالموت اختياراً، هو الحياة الطيبة التي يدعو إليها القرآن ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**

اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. هذا أولاً.

والحياة الطيبة أخذ وعطاء ثانياً، وأقصد بالأخذ والعطاء: أن يأخذ الإنسان في الدنيا من الله ويعطي لله.

وبقدر ما يأخذ الإنسان من الله، يعطي كذلك، وإذا كان الطرف الثاني من المعادلة غير خاضع لإرادته وتدخل في حتميات السنن الإلهية، فإن الطرف الأول من المعادلة خاضع لإرادته.

فإن رحمة الله تعالى تفيض على الناس، من غير حساب، وكل إنسان يأخذ من هذه الرحمة بقدر وعاء نفسه، ووعاء نفسه هو ما يريد.. وهذا إجمال له شرح وتفصيل، ولا يمكن أن نسبر غور هذا الإجمال من غير شرح وتفصيل، وليس هنا محل هذا الشرح.

فكل يأخذ إذن من رحمة الله التي تفيض على عباد الله بقدر ما يريد. فمنهم من يرفض هذه الرحمة بالكامل، وأولئك هم الأشقياء من خلق الله، وهناك من يأخذ القليل، وهناك من يأخذ أكثر من ذلك، وهناك من يأخذ من رحمة الله حظاً عظيماً، وهناك من يكون حظه أعظم... إلاّ أن

حظوظ الناس وأوعية نفوسهم ـ مهما أخذوا من رحمة الله ـ محدودة، ورحمة الله التي تفيض على الناس غير محدودة.

وهذا هو الشطر الأول من هذه المعادلة، وهو الشطر الاختياري في علاقة الإنسان بالله، وأما الشطر الآخر وهو الشطر الذي تحكمه حتميات السنن الإلهية هو أن الإنسان يعطي بقدر ما أخذ من رحمة الله.

وكلما كان الإنسان يتلقى حظاً أعظم من رحمة الله كان عطاؤه أعظم بطبيعة الحال.

وهذا هو الانفتاح والانغلاق في حياة الإنسان. فإذا كان قلب الإنسان منغلقاً على رحمة الله لا يكاد يأخذ من رحمة الله نصيباً، وإن كانت رحمته واسعة لا حدود لها.

وهؤلاء هم الصم البكم العمي ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ**﴾[1].

ومهما كان نور الشمس ووهجها قوياً فلا يبصره الأعمى، ومهما كان الصوت قوياً فلا يسمعه الأصم، وهؤلاء هم الذين

---

١ ـ البقرة: ١٨.

لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

أولئك يجازيهم الله على انغلاقهم فيزيدهم انغلاقاً وعمى وصماً ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾[2]. والأكنة: جمع كنانة وهي الغطاء، الذي يحفظ فيه الشيء، والوقر: الثقل.

هذه حالة انغلاق الإنسان على الله تعالى، وحالة التعطيل الكامل للقلب.. والله تعالى يزيد أولئك انغلاقاً كما يزيد الذين ينفتحون على مناهل رحمة الله انفتاحاً وشرحاً للصدر ﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾[3].

---

١ ـ الأعراف: ١٧٩.
٢ ـ الأنعام: ٢٥.
٣ ـ الأعراف: ١٢٥.

وإذا بلغ الإنسان هذا الحد من التعطيل الكامل والانغلاق الكامل على الله تعالى فلا يكون له نور، ولن يستطيع أن يهب غيره نوراً ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[1]. وهذه قاعدة وسنّة إلهية ثابتة.

تجارة الإنسان مع الله بين الأخذ والعطاء

وتجارة الإنسان مع الله بين هذا الأخذ والعطاء، فكلما تلقى الإنسان من الله من نور وهدى.. رفعه إلى الله وبين هذا التقي من الله والرفع إلى الله تجارة الإنسان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2].

والله تعالى يشتري من عباده ما وهبهم ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ

---

١ ـ النور: ٤٠.

٢ ـ الصف: ١٠.

بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[١]. والله تعالى يفترض من عباده ما وهبهم من أموال وبنين، ثم يضاعفه لهم ﴿**مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ**﴾[٢]. وهذه تجارة لن تبور يتلقى الإنسان النور والرحمة والأموال والبنين من الله تعالى، ثم يرفعها إلى الله فيضاعفها له.. ويستمر هذا الأخذ والعطاء في حركة تصاعدية متصلة متنامية، وهذه هي (تجارة لن تبور) أي ليس فيها كساد ولا خسارة.

(لا إله إلاّ اللّه) كلمة طيبة

الإيمان بلا إله الله ينشطر إلى شطرين:

الشطر الأول: من يطهّر الإنسان من لوثة الشرك، وينفي سلطان الهوى والطاغوت عن حياة الإنسان ونفسه.

والشطر الثاني: من هذه الكلمة تشدّ الإنسان بالله وتجعله

---

١ ـ التوبة: ١١١.

٢ ـ البقرة: ٢٤٥.

في موقع وعي نفوذ سلطان الله المطلق وإرادته ومشيئته، وفي موقع قبول حاكمية الله على حياته وإخلاص العمل له، وابتغاء وجهه في كل شيء.

إذن هذه الكلمة بشطريها تقطع الإنسان عن سلطان التعلق بالدنيا والهوى والطاغوت وتشده بالله فهي كلمة فصل ووصل وقطع وارتباط.

وهي كلمة طيبة لا أطيب منها في حياة الإنسان، لأنها تقطع الإنسان عن كل شيء غير الله، وتربطه بالله تعالى، ولا يمكن أن يرتبط الإنسان بالله كما ينبغي، إلاّ إذا انقطع الإنسان عن غير الله، وكلما كان الانقطاع عن غير الله أكمل كلما كان الانقطاع إلى الله أشد وأقوى.

فهذه الكلمة إذن كلمة صعود وعروج إلى الله ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرفَعُه**﴾. وأكمل ما يكون الصعود إلى الله عندما يكون الانقطاع عن غير الله أقوى وأكمل... فإن فطرة الإنسان تتوجه إلى الله، إلاّ أن الأجواء والشهوات من جانب والفتن والمغريات من جانب آخر تعيقه عن العروج إلى الله، فإذا قطع الإنسان عن نفسه

سلطان الأهـواء والمغريـات تجذبـه الجـذبات الإلهيـة بشـكل طبيعي وتلقائي وهذا هو صعود الكلمة الطيبة إلى الله.

ولابد أن نشير هنا إلى نقطتين لهما علاقة بهذا الصعود:

النقطة الأولى: إن الصعود إلـى الله والانقطـاع إليـه تعـالى لـيس بمعنـى تـرك الـدنيا وهجرهـا واعتـزال الأزواج والبنـين والأموال.. فإن الدنيا في منطق الإسلام لا تعارض الآخـرة ولا تمنع من لقاء الله، ولقد آتى الله تعالى سليمان من الدنيا ما لـم يأت أحداً من ملوك عصره، وآتاه الله تعـالى مع ذلـك النبـوة والحكمة والزلفى.

ومن الممكن أن يعيش الإنسان مع الناس في دنياهم، فـي سرّائهم وضـرّائهم، وفـي أسـواقهم وأعمـالهم دون أن ينقطع عن الله تعـالى، ولقـد كـان رسـول الله ﷺ يعـيش مـع النـاس، ويتقلـب معهـم فـي وجـوه الحيـاة، ويـدخل الحـرب والسـلم ويشارك الناس سـرّاءهم وضـرّاءهم عسـرهم ويسـرهم.. ومع ذلك لم ينقطع عن الله تعالى قط..

والنقطة الثانية: إن الصعود يتم للإنسان بقدر مـا يتخفـف من التعلق بالدنيا وحبّهـا، فـإن حـب الـدنيا والتعلـق بهـا يعيـق

صاحبه من الصعود إلى الله، ويكبله ويثقله.

ولا تنافي النقطة الأولى النقطة الثانية. فإن متاع الدنيا لا يحجز عن الآخرة ولا يعيق الإنسان عن الصعود إلى الله، ولو كان دنيا سليمان بن داود عليه السلام. وأما التعلق بالدنيا فيعيق صاحبه عن العروج إلى الله، ولو كان تعلقه بساعته اليدوية.

الشهادة والشاهد

الإيمان والشهادة بالتوحيد كلمة طيبة، من غير ريب. ولكن قد يتجسد هذا الإيمان والشهادة في نفس الشاهد، حتى يكون الشاهد الذي يحمل هذه الشهادة هو بنفسه كلمة طيبة، صاعدة إلى الله، كما كان المسيح عيسى بن مريم عليه السلام كلمة الله بصريح القرآن.

كان زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام يتكلم في مجلس الطاغية ابن معاوية يزيد، فأراد يزيد أن يقطع كلامه، فأمر المؤذن أن يؤذن، فكان علي بن الحسين عليه السلام يردد مع المؤذن فصول الأذان، فلما نادى المؤذن: أشهد أن لا إله إلاّ الله قال

علي بن الحسين عليه السلام: «شهد بها شعري وبشري ولحمي ودمي»[١].

عندما تتجسد الشهادة بالتوحيد في نفس الشاهد بهذه الصورة يكون الشاهد هو الكلمة الطيبة، التي تصعد إلى الله، كما كانت الشهادة والإيمان كلمة طيبة صاعدة.

ولنسمع إلى سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام في دعاء يوم عرفة بعرفة، كيف تتبلور وتتجسد في نفسه شهادة أن لا إله إلاّ الله، فيقول عليه السلام في هذا الدعاء الذي هو من أدعية أهل البيت عليهم السلام: «وأنا أشهد يا إلهي بحقيقة إيماني، وعقد عزمات يقيني، وخالص صريح توحيدي، وباطن مكنون ضميري، وعلائق مجاري نور بصري، وأسارير صفحة جبيني.. إلى أن يقول: ونياط حجاب قلبي، وأفلاذ حواشي كبدي، وأطراف أناملي، ولحمي، ودمي، وبشري، وعصبي، وقصبي، وعظامي، ومخي، وعرقي، وجميع جوارحي، وما أقلّت الأرض مني، ونومي ويقظتي وحركات ركوعي وسجودي».

١ ـ بحار الأنوار ٤٥: ١٣٩.

أجل عندما تكون الشهادة في نفس الإنسان بمثل هذا العمق، وعندما يتعامل الإنسان مع لا إله إلاّ الله بمثل هذا التعامل العميق، يكون الشاهد والشهادة أمراً واحداً، ويكون الشاهد كلمة طيبة، كما كانت الشهادة كلمة طيبة صاعدة إلى الله. وعندئذٍ تكون الشهادة حجاباً بين الشاهد وعذاب الله في نار جهنم.

يقول الإمام أبو الحسن أمير المؤمنين عليه السلام فيما علّم كميل رحمه الله من الدعاء المعروف بإسم (كميل): «إلهي وسيدي وربي أتراك معذبي بنارك بعد توحيدك، وبعد ما انطوى عليه قلبي من معرفتك، ولهج به ضميري من حبك، وبعد صدق اعترافي لربوبيتك، هيهات أنت أكرم من أن تضيّع من ربّيته. وليت شعري يا سيدي وإلهي ومولاي أتسلط النار على وجوه خرّت لعظمتك ساجدة، وعلى ألسن نطقت بتوحيدك صادقة، وبشكرك مادحة، وعلى ضمائر حوت من العلم بك حتى صارت خاشعة، وعلى جوارح سعت إلى أوطان تعبدك طائعة، وأشارت باستغفارك مذعنة... ما هكذا الظن بك ولا أخبرنا بفضلك عنك يا كريم».

الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

إن الإنسان يتحوّل على خط طاعة الله وذكر الله والعمل الصالح إلى كلمة طيبة صاعدة إلى الله.. ﴿**فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**﴾، كما أن الإنسان عند ممارسته المنكرات والسيئات والإصرار عليها يتحول إلى كلمة خبيثة وعمل غير صالح. يقول تعالى عن ابن نوح: ﴿**إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾[1]، وإلى ركام من السيئات، من سيئاته وسيئات الآخرين، فيركمها الله جميعاً فيجعله في جهنم ﴿**فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ**﴾[2]. وركام السيئات مثل ركام الفضلات النتنة، فيه نتن كل سيئة، لأنه ركام منها جميعاً.

وشرّ من ذلك كله أن الإنسان في جو الآثام والشرك والسيئات يتحوّل إلى وقود من وقود جهنم، ووقود جهنم: الناس والحجارة. يقول تعالى: ﴿**فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا**

---

١ ـ هود: ٤٦.

٢ ـ الأنفال: ٣٧.

النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[1].. وهذه هي الكلمة الخبيثة.

كما أن الإنسان في جو طاعة الله وذكره والأعمال الصالحة يتحول إلى كلمة طيبة عند الله.

---

١ ـ البقرة: ٢٤.

الكلمة الثالثة

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾

صحيح أن الكلمة الطيبة أساس العمل الصالح ومصدره، ولكن هذا ليس بمعنى نفي التأثير المتقابل بين العمل والكلمة، إن الكلمة الطيبة من دون العمل الصالح تبقى عقيمة، وتذبل وتتضاءل.

كما أن جوارح الإنسان هي مصدر حركة الإنسان ولكن هذه الجوارح نفسها إذا بقيت دون حركة تفقد قوتها وفاعليتها وقدرتها على النشاط والحركة وتتضاءل وتضعف.

إن الإيمان والتقوى كلمتان طيبتان من غير شك، ولكن إذا عزلناهما عن ساحة الحياة وعن النشاط والحركة يفقدان جذوتهما وقدرتهما بالتدريج.

إن إيمان المؤمنين يزداد ويقوى بالأعمال الصالحة التي يبتغي بها أصحابها وجه الله، وكلما كان العمل الصالح الذي يبتغي به صاحبه وجه الله أشد وأشق ازداد إيمانه بالله، ولذلك

كان (أفضل الأعمال أحمزها)[١].

وهكذا التقوى إذا بقي الإنسان التقى في بيته، وأغلق على نفسه باب بيته، وتجنب الدخول في وسط الناس، تتضاءل في نفسه التقوى بالتدريج، ويتنامى عنده التقوى عندما يدخل المجتمع ويدخل السوق ويتعرض للحرام فيملك نفسه ويده وعينه ولسانه عن الحرام[٢].

إن الإيمان والتقوى يقوّمان نفس الإنسان، وهما كلمتان طيبتان، ولكنهما يضعفان ويخلقان كما يخلق (يبلى) الثوب الذي على الإنسان، فيحوجان صاحبهما إلى أن يجددهما ويحافظ عليهما بالذكر والتذكير والمحاسبة والمراقبة.

ولذلك أمر الله تعالى بالوقوف بين يديه خمس مرات للصلاة في كل يوم وأمر الله بصيام شهر رمضان، وبالحج،

---

١ ـ أي أشقها وأمتنها وأقواها (مجمع البحرين)، والنهاية في لغة (حمز) مضمون حديث نبوي.

٢ ـ وليس هذا بمعنى أن يضع الإنسان نفسه في مكان ومزالق الحرام، لتتاح له فرصة مقاومة الحرام والتقوى، فلسنا نريد هذا المعنى، وبينه وبين ما نقول فرق واضح لا يخفى.

والإنفاق حتى لا يذبل الإيمان في نفس صاحبه، وكذلك التقوى.

روى أحمد بن حنبل في المسند عن رسول الله ﷺ: «إن الإيمان يخلق (يبلى) في القلب كما يخلق الثوب على الجسد، فجددوا إيمانكم»[١].

ولذلك يأتي ذكر العمل الصالح في القرآن كثيراً بعد ذكر الإيمان ﴿**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾(٢).

ولولا العمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر كان إيمان الإنسان في خُسر وتضاءل أيضاً، كما أن الإنسان نفسه يكون في حالة خُسر مستمرة.

---

١ ـ ومثله في معجم الطبراني والمستدرك والملخص ١: ٤.

٢ ـ العصر: ١ ـ ٣.

الفهرس